قبة جامع القيروان الكبير وسقوفه

للسيد جورج مارسه (عضو المجمع العلمي العربي في دمشق) طبع في تونس وباريز ١٩٢٥ ص ٦٠ و٢٨ رسم و٣٣ لوحة مصورة :

Coupole et Plafonds de la Grande Mosquée de Kairouan par Georges Marçais, Tunis et Paris 1925

هذا التأليف هو بحث لسلسلة أبحاث تُعنى بنشرها ادارة الآثار القديمة والفنون الجميلة في تونس وهي ايضاً تبحث في آثار تلك البلاد والمدنيات التي تعاقبت عليها وقد وضع المؤلف تأليفه هذا ليكون احدى حلقات هذه السلسلة وضمنه بحثاً جديداً عن قبة جامع القيروان وسقوفه ذاكراً الأيدي العاملة التي تداولت عليها في أزمنة مختلفة خلال اربعة قرون (اي من القرن الثالث الى السادس هـ) . ومع ندرة الوثائق التاريخية من مطبوعات ومخطوطات وغموضها تمكن المؤلف باقتداره وقوة استنباطه من ايفاء هذا البحث حقه مسترشداً بما بقي في الجامع من آثار تلك العصور من نقوش وزخارف معارضاً بينها وبين ما بقي من أمثالها في العراق ومصر والشام . وأظهر بعد تحقيق وتدقيق ما كان غامضاً وما عسر على غيره ادراكه . فجاء هذا البحث تتمةً لما نشره الاستاذان فلوري (S. Flury) وسادالان (H. Saladin) عن بناء هذا الجامع ومحاسنه .

وبعد ان وصف المؤلف القسم العلوي من المحراب وزخرف عقده المزين برسوم غصون الكرمة وعناقيدها (لوحة ٨) بحث في الزمن الذي رسمت فيه تلك الرسوم مسترشداً بما يماثلها في غير هذا البناء في سائر المدن العربية . ولما لم يهتد لشيء يستعين به على إدراك غايته استدرك ذلك متسائلاً عما اذا لم يكن هنالك بعض الشبه بين رسوم هذه الكرمة (شكل ١) وتلك الأخرى المذهبة التي وصفها مؤرخو العرب وقالوا انه كان يزدان بها جدار قبلة الجامع الأموي في دمشق . وقد اكتفى المؤلف بهذا السؤال اذ لم يجد ما يؤيد به نظريته لان الحرائق التي انتابت جامع دمشق منذ ذاك العهد ذهبت بكرمته وجميع محاسنه حتى لم تبق فيه شيئاً من زخارف ذاك العصر حتى يسترشد بها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

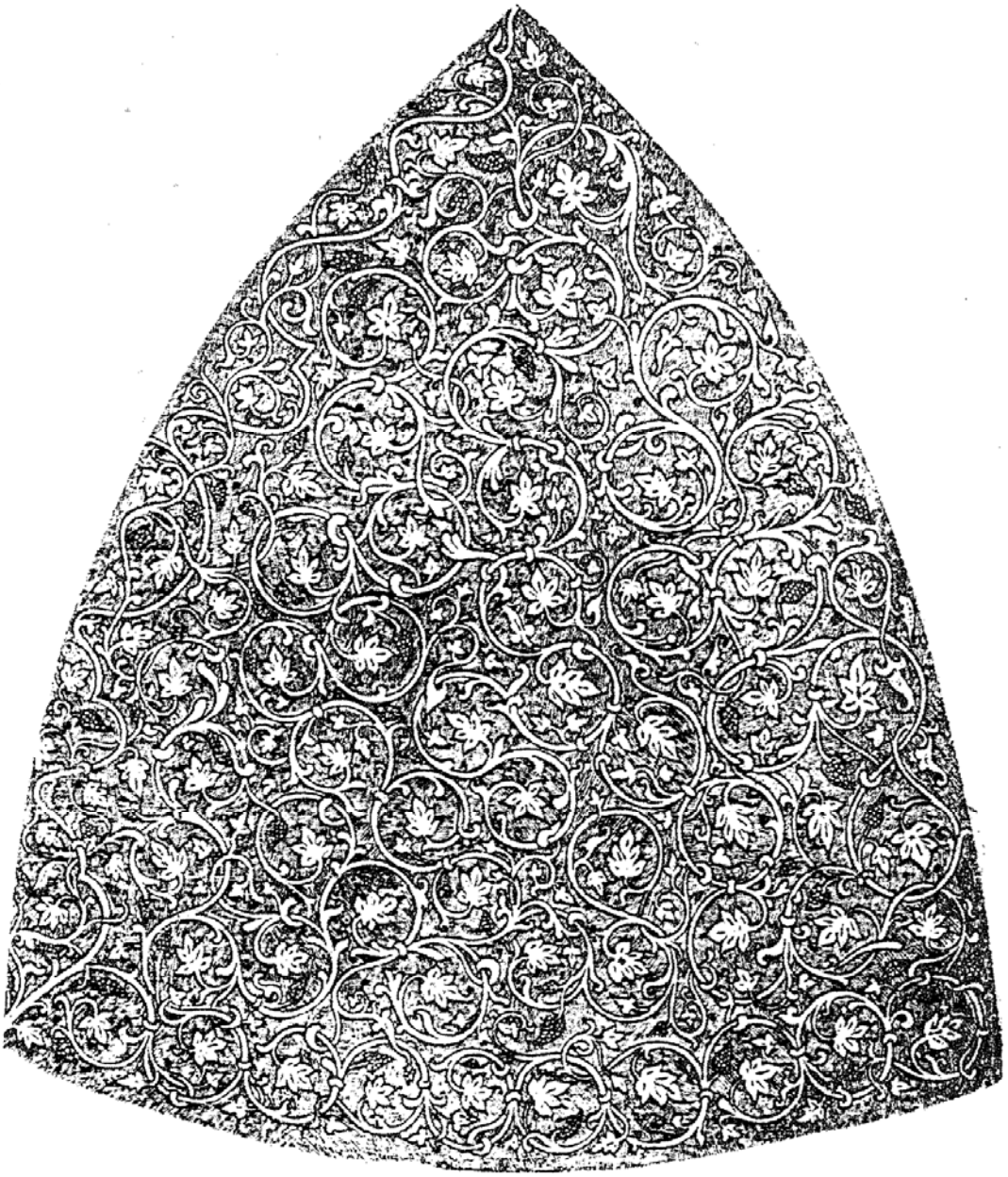

شكل ١ كرمة جامع القيروان

(كابشة المؤلف)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

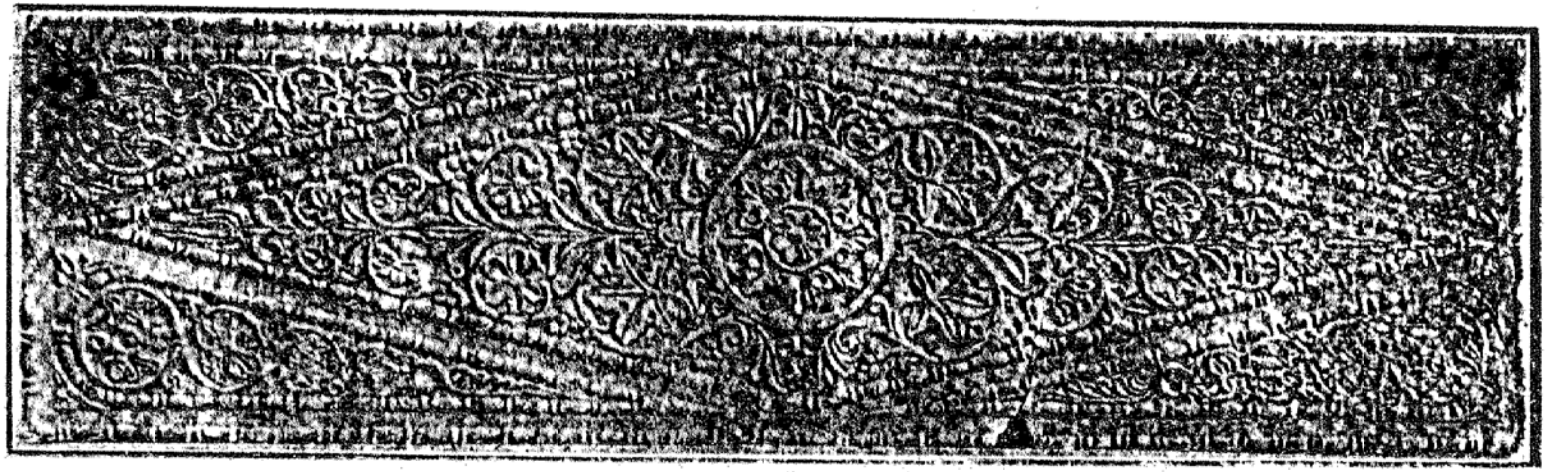

شكل ٢ (لوحة جامع بني امية في دمشق)

(كليشة دار الآثار العربية)
في دمشق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كنت افضل ان أمرّ بهذا البحث دون ان أقول كلمة فيه لو لم أجد مستنداً يؤيد نظرية المؤلف . وقد عثرت في دار الآثار العربية في دمشق على لوحة رخام (شكل ٢) عليها نقوش نافرة (رقم ح ٨٨) التقطت من بين أنقاض الجامع الأموي ولعلها من بقايا كرمته الموصوفة ، على الرغم من تأثير الحريق الذي سودها ، فان نقوشها محفوظة واضحة ، وظاهر عليها اثر الذهب المطلية به . و يرى الناظر اليها أغصان الكرمة وعنقودها كالتي في جامع القيروان حتى ليخيل للناظر اليهما كأنهما من صنع صانع واحد ، غير انهما اختلفتا باختلاف سطح الجدار الذي رسمتا عليه . فبينما ترى كرمة القيروان على سطح مقعر نرى كرمة دمشق على سطح مستوٍ ، هذا من جهة ومن جهة أخرى رسمت كرمة القيروان بصباغ على خشب وكرمة دمشق بحفر ناتيء على حجر . و يستفاد من كتابة المؤلف ان الفن المعماري العراقي والمصري والشامي ظاهر في بناء جامع القيروان وهذا يحملنا على الاعتقاد بانه كان بين عمال تونس من ثم من تلك البلاد ولا يبعد ان يكون صانع المحراب دمشقياً متأثراً بمنظر كرمة بلدته فاتخذها انموذجاً نسج على منواله . ولا ريب بان كرمة دمشق هي الأصل في هذا الباب ، وما كرمة القيروان الا نسخة عنها ، لأن جامع القيروان أنشيء سنة ٢٢١ هـ . وجامع دمشق حوّل الى مسجد في سنة ١٨٧ و١٨٨ هـ . وجميع من وصفوا كرمة دمشق متفقون على انها من عهد الوليد وهو الذي أنفق عليها سبعين الف دينار كما ذكر ياقوت في معجم البلدان .

ولا يخفى انه لم يطرأ على جامع دمشق تغيير الا بعد حريق سنة ٤٦١ هـ لما دثرت محاسنه وزال ما كان فيه من الصناعات النفيسة ومن جملتها الكرمة المذكورة .

ان اللوحة المحفوظة في دار الآثار هي ولا شك قطعة من هذه الكرمة ، وان صح ذلك فيكون أصلح جواباً للمؤلف . واعتماداً على ما تقدم نقول بلا تردد ان كرمة القيروان هي نسخة من كرمة دمشق ، وهي من أقدم آثار جامع القيروان كما ان كرمتنا من أقدم آثار مسجدنا .

مدير دار الآثار

جعفر الحسني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net